حولية الكوفة

دورية سنوية محكمة، تعنى بالدراسات والبحوث التراثية والمعاصرة المتخصصة بشؤون مدينة الكوفة ومسجدها المعظم
تصدر عن أمانة مسجد الكوفة والمزارات الملحقة به - العدد الاول - شهر رمضان - ١٤٣٢هـ / آيار - ٢٠١١م

١

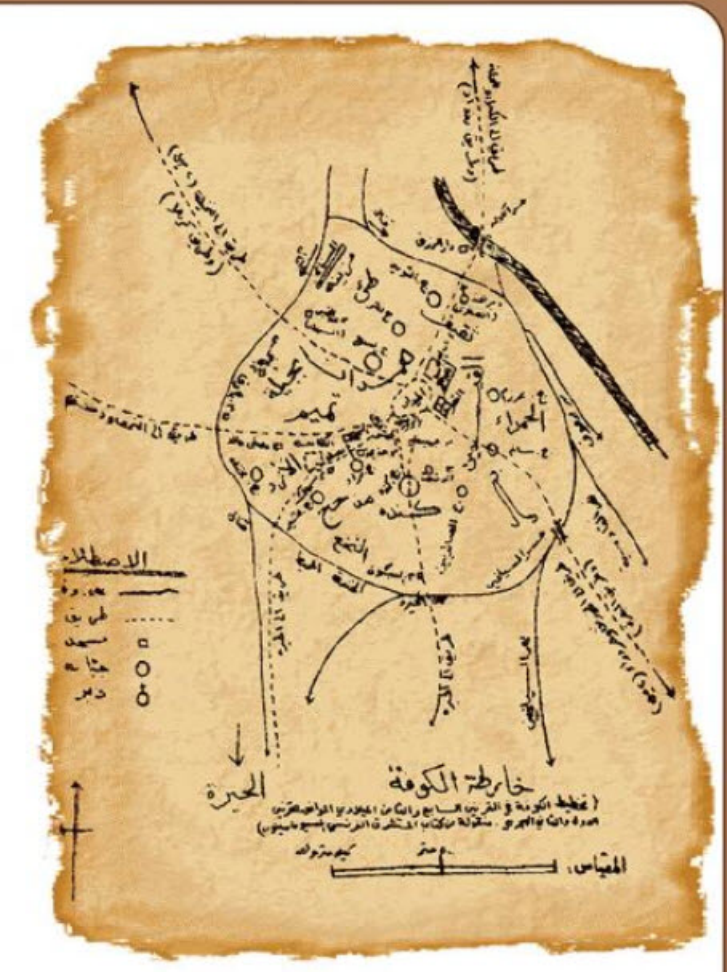

ديوان الوقف الشيعي
أمانة مسجد الكوفة
والمزارات الملحقة به

المشرف العام
السيد موسى تقي الخلخالي

رئيس التحرير
د. كامل سلمان الجبوري

الهيثم بن عدي

(١١٤-٢٠٧هـ)

الأستاذ جاسم مهاوي حسين

اسمه ولقبه:

أبو عبد الرحمن الهيثم بن عدي[١] بن عبد الرحمن بن زيد بن أسيد بن جابر بن عدي بن خالد بن خثيم بن أبي حارثة بن جدي بن تدول بن بحتر بن عتود بن عنبر بن سلامان بن ثعل بن عمرو بن الغوث[٢] بن جلهمة وهو طي، الطائي الثعلي البحتري الكوفي[٣].

والثُعَلي: بضم الثاء المثلثة وفتح العين المهملة، وبعدها لام، هذه النسبة إلى ثعل بن عمرو بن الغوث بن طيء[٤] وبها لقب الهيثم بن عدي حتى قال الشاعر في هجاء للهيثم:

إذا نسبت عدياً في بني ثُعَل ... فقدّم الدال قبل العين في النسب[٥]

إن نسبة الهيثم بن عدي إلى طيء قد أثيرت حولها الشبهات؛ إذ طعن في نسبه أكثر من واحد. «فقد أنشد لدعبل يهجو ابن أبي دؤاد ويستطرد بهجاء الهيثم:

سالت أبي وكان أبي عليماً ... بأخبار الحواضر والبوادي
فقلت أهيثم من عدي (كذا) ... فقال كأحمد بن أبي داؤد
فإن يك هيثم منهم صحيحاً ... فأحمد غير شك من أياد
متى كانت إياد تروس قوماً ... لقد غضب الاله على العباد[٦]

كما قال أبو نؤاس في هجاء الهيثم حين أعرض الأخير عنه في مجلسه:

للهيثم بن عدي في تلّونه ... في كل يوم له رحل على خشبِ
فما يزال أخا حل ومرتحل ... إلى الموالي وأحياناً إلى العرب
له لسان يزجيه ليهجوهم ... كأنه لم يزل يعدى على قشب
لله أنت فما قربى تهم بها ... إلاّ اجتلبت لها الإنسان في كثب
يا هيثم بن عدي لست للعرب ... ولست من طئ إلاّ على الشعب
إذا نسبت عدياً في بني ثعل ... فقدم الدال قبل العين في النسب[٧]

والظاهر إن البيت الأخير لم يكن من نظم أبي نؤاس وإنما ضمّنه قصيدته والبيت لرجل من بني شيبان يقال له ذهل بن ثعلبة[٨].

وقد هجا الهيثم وطعن في نسبه الشاعر علي بن جبلة العكوك بقصيدته:

للهيثم بن عدي نسبة جمعت ... آباءه فاراحتنا من العددِ
أعدد عدياً فلو مدّ البقاء له ... ما عمر الناس لم ينقص ولم يزدِ
نفسي فداء بني عبد المدان وقد ... تلوه للوجه واستعلوه بالعمد
حتى أزالوه كرهاً عن كريمتهم ... وعرفوه بذلّ أين أصل عدي؟
يا ابن الخبيثة من أهجو فأفضحه ... إنا هجوت وهل تسمى إلى أحد[٩]

ودخل في أحد الأيام الشاعر مروان بن أبي حفصة على القاضي أبي يوسف وكان بحضرته الهيثم بن عدى وعاصم الغساني، فسأل مروان أبا يوسف قضاء حاجته فلم يقضها له فخرج وهو يقول:

هذا لعمري مجلس دنسي ... ثلاثة كلهم دعي[١٠]

(١) ابن قتيبة: المعارف، تحقيق ثروت عكاشة، القاهرة دار الكتب المصرية، ١٩٦٠، ص٥٣٩.
اكتفى ابن قتيبة عن نسب الهيثم بقوله «الهيثم بن عدي من طيئ» ابن النديم: كتاب الفهرست، تحقيق رضا تجدد، طهران، جامعة طهران ١٩٧٢ص١١٢.
(٢) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، بيروت دار الكاتب العربي ٥٠/١٤.
(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان، تحقيق إحسان عباس بيروت، ١٠٦/٦، ٢٦١/٦.
(٤) ابن الأثير: اللباب في تهذيب الأنساب، القاهرة. مكتبة حسام الدين القدسي ٣٨٦هـ١٩٥/١، ابن خلكان: المصدر السابق ١١٣/٦.
(٥) الاصبهاني: الأغاني طبعة دي ساس ١٠٩/١٨.
(٦) ابن النديم: الفهرست:١١٢.
(٧) أبو نؤاس: ديوان أبو نؤاس، طبع مصر١٨٩٨، ص١٧٥.
الخطيب: م س١٤/٥٤، ابن خلكان: م س١١٢/٦.
(٨) الاصبهاني: م س١٠٩/١٨؛ ياقوت: معجم الأدباء، تحقيق مرغليوث، الطبعة الأولى مصر ١٩٢٥، ٢٦٢/٧.
(٩) الاصبهاني: الأغاني: ١٠٩/١٨.
(١٠) المرزباني: نور القبس من المقتبس ص٢٩٤.

إن النصوص الشعرية التي ذكرت آنفا تنفي نسبة الهيثم إلى ثُعَل بل أن بعضها ذهب إلى أبعد من ذلك فنفى نسبته إلى طئ بل إلى العرب.

إن تحليل النص الشعري ومعرفة الدوافع الكامنة التي أخرجته إلى الوجود قد تكشف لنا وجه الحقيقة فنطوى بها كشحاً عن الوهم.

أما أبو نؤاس فقد هجا الهيثم وطعن في نسبه لأنه حضر له مجلساً طلباً لعلمه فأعرض الهيثم عنه، فترك أبو نؤاس المجلس غاضباً وهجا الهيثم بالأبيات التي ذكرناها ولم ينفع معه اعتذار الهيثم منه[١] وقد أوضح أبو نؤاس هذا في شعر له:

أتيت الهيثم بن عدي أرجو الـ ... علوم وكنت أمنحه الصفاء

فأعرض هيثم لما رآني ... كأني قد ذممت الأدعياء

فقلت له اطمئن فلست أهجو ... دعياً ما توضحت السماء[٢]

وفي ديوانه ورد البيت الأخير بصيغة أخرى

وقد آليت أن أهجو دعياً ... ولو بلغت مروته السماء

إن الوضع النفسي الذي عاشه أبو نؤاس في لحظة هجاءه الهيثم وهو في سورة من الغضب، لا يمكننا الاعتماد على حكمه هذا لانعدام الشروط موضوعية للحكم.

أما ما أنشده على بن جبلة العكوك في الطعن بنسب الهيثم فهو أيضاً مردود لأن علياً كان مدفوعاً في طعنه هذا من قبل أبي يعقوب الخزيمي[٣]، وأبو يعقوب هذا كان يحمل كرها للهيثم؛ إذ روى عنه الجاحظ إنه قال: ما رأيت كثلاثة رجال يأكلون الناس أكلاً، إذا رأوا ثلاثة رجال ذابوا كما يذوب الملح في الماء.... أو الرصاص في النار كان هشام بن محمد الكلبي علامة نسابة، وراوية للمثالب عيّابة، فإذا رأى الهيثم بن عدي ذاب كما يذوب الرصاص في النار[٤].

إن هذه الرواية على الرغم من أنها تكشف حقيقة أثبت البحث صحتها وهي اهتمام الهيثم بدراسة الأنساب والطعن في بعضها، فإنها تكشف مدى كره أبي يعقوب الخزيمي وحنقه على الهيثم بن عدي لذلك لا يمكننا لأخذ برأي علي بن جبلة الشاعر.

وعلى هذا فإذا كانت النصوص الشعرية لأبي نؤاس وعلى بن جبلة ودعبل لا تستبطن الحقيقة فلماذا وجهت هذه التهمة إلى الهيثم وطعن في نسبه؟

(١) الخطيب: م س١٤/٥٣؛ ابن خلكان: م س٧/٢٦٣-٤.
(٢) القفطي: انباه الرواة على طبقات النحاة، القاهرة ١٩٥٠، ٣/٣٦٧.
(٣) الاصبهاني: م س ١٨/١٠٩؛ ياقوت: معجم الأدباء ٧/٢٦٤.
(٤) الجاحظ البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هرون قاهرة ١٩٦٨ ١/١٣١؛ ابن خلكان: م س٧/٢٦٢.

كان الهيثم بن عدي راوية للأخبار والأنساب «تعرض لمعرفة أصول الناس ونقل أخبارهم»[٥] «فأورد معايبهم وأظهرها وكانت مستورة فكره لذلك»[٦].

وفي الحقيقة إن لكل فعل رد فعل فما كان ممن ذكر أسلافهم بسوء أو أظهر معايبهم وطعن في أنسابهم إلاّ أن طعنوا في نسبته إلى ثعل وطئ، وإلاّ فإنه من المرجح أن الهيثم، صحيح النسب في طيء من ثعل[٧].

ولادته ونشأته:

لم تذكر المصادر السنة التي ولد الهيثم بها ولا تسعفنا بشيء عن نشأته الأولى إلا نتف هنا وهناك. فقد ذكر الخطيب البغدادي بأن أباه كان واسطياً[٨] وأضاف له القفطي بأنه كان «من خير الناس»[٩]

وكان من المقربين إلى زياد بن صالح قائد جيش ابن هبيره. أما أمه فقد كانت من سبي منهج[١٠]. وأما الهيثم فقد ولد في الكوفة حوالي سنة١١٤ على الرواية التي تقول بأنه مات سنة٢٠٧وله من العمر ثلاث وتسعون سنة[١١]. وفي الكوفة نشأ وترعرع وأخذ علومه من حلقاتها، ثم انتقل منها إلى بغداد فسكنها وحدث بها[١٢] وحضر مجالس علمها، وكان من المقربين إلى القاضي أبي يوسف[١٣] وكان له عقب ببغداد[١٤].

حياته العلمية:

أخذ الهيثم من حلقات الكوفة العلمية والأدبية ثقافة عصره فبدأ بالعلوم الموصلة وهي العربية وعلومها ثم عكف على القرآن والحديث وأجهد نفسه في طلب الحديث حتى عد من وراته[١٥] ثم اتجه إلى رواية الشعر[١٦] والأخبار وأيام العرب وأنسابها ومثالب بعض قبائلها حتى عدّ حجة في هذا الباب[١٧] والهيثم بن عدي-كراوية لحديث الرسول ﷺ- كان لعلماء الجرح والتعديل في رواة الحديث، رأي فيه.

(٥) القفطي: انباه الرواة ٣/٣٦٥.
(٦) ابن خلكان: م س٦/١٠٦.
(٧) القفطي م س٣/٣٦٥.
(٨) الخطيب: م س١٤/٥٠.
(٩) القفطي: انباه الرواة ٣/٣٦٥.
(١٠) الخطيب: م س ١٤/٥٠.
(١١) الخطيب: م س ١٤/٥٤.
(١٢) الخطيب: م س ١٤/٥٠.
(١٣) ابن قتيبة: المعارف ٥٣٨.
(١٤) المرزباني: نور القبس من المقتبس ٢٩٤.
(١٥) الجاحظ: البيان التبيين ١/٣٦٠.
(١٦) الرقيق النديم: قطب السرور في أوصاف الخمور،(تحقيق أحمد الجندي، دمشق، مجمع اللغة العربية بدمشق ص٤٢٤-٤٢٥.
(١٧) ابن النديم: الفهرست ١١٢.

قال يحيى بن معين: الهيثم بن عدي كوفي ليس بثقة، كان يكذب.

وقال علي بن المديني: الهيثم بن عدي أوثق عندي من الواقدي ولا أرضاه في الحديث ولا في الأنساب ولا في شيء[١].

وروى محمد بن أحمد بن يعقوب عن جده أنه قال: الهيثم بن عدي كانت له معرفة بأمور الناس وأخبارهم ولم يكن بالحديث بالقوي ولا كانت له به معرفة، وبعض الناس يحمل عليه في صدقه[٢]؛ إذ قال أبو داود إنه كذاب. أما النسائي فقد قال بأنه متروك الحديث[٣].

إن رأي أهل الحديث في الهيثم بن عدي قائم على أساس نقد إسناده ونقد متن الأخبار التي يرويها، ونقد الإسناد يتخذ من عدالة الراوي وضبطه للنص إلي يرويه، أساساً له. فإن كان الهيثم بن عدي غير موثق عند أهل الحديث فهل يسري هذا الشك إلى الأخبار التأريخية التي رواها بسند مشابه لسند الحديث أو مغاير له أو رواها دون سند؟

إن هذا السؤال يدفعنا إلى التحقيق في المصادر التي استقى منها الهيثم أخباره التاريخية للفترات المختلفة، ورأي معاصريه في عدالته لمعرفة مدى موضوعية الهيثم في كتاباته التاريخية.

مصادر الهيثم:

استقى الهيثم بن عدي أكثر أخباره عن بداية الخلق والطوفان من أهل الكتاب[٤] وفي الفترة الجاهلية اعتمد على الرواية الشفهية لأخبار العرب وأيامها وأشعارها، وعلى خبراته الخاصة مع أهل الأخبار كالكلبي.

ولم يعرض الهيثم أخباره عن هذه الفترة للنقد والتحقيق، لفقدان الآثار المادية العائدة لها، ولأنها لا تشكل جزءً من الخبر الديني الذي يفرض على الباحث استعمال منهج أهل الحديث في نقد الخبر. فقد ذكر الهيثم أخباراً عن عرب عاد[٥] وبداية ظهور الكتابة في الحجاز واليمن[٦].

أما أخبار الهيثم عن فترة عصر النبوة والخلفاء الراشدين فقد استقاها من مصدرين أولهما أهل الحديث ونجد الهيثم هنا يتشدد في إرسال إسناده لأن الخبر التأريخي لهذه الفترة يشكل جزءً من الخبر الديني، وثانيهما الخبر التاريخي الذي اعتمد فيه على رواة الأخبار والمغازي والسير: فلقد روى الهيثم عن أبي عمير مجالد بن سعيد الهمداني، أخباراً تاريخية كثيرة.

وقد سكن مجالد الكوفة، واشتهر بروايته للأخبار[٧] وقد سمع الحديث عن قيس بن أبي حازم والشعبي. وقد روى أهل الحديث عن مجالد بتحفظ لضعف في إسناده[٨]. وقد أخذ الهيثم عن مجالد عن الشعبي خبر إسلام أبي بكر[٩] وسلمان الفارسي[١٠] وتدوين عمر للديوان وتحديد الأعطيات[١١] وأخذ عنه أخباراً تتعلق بولاية مصعب على العراق[١٢].

وبعد أبو بكر عبد الله بن عياش الكوفي[١٣] من المصادر المهمة التي أخذ عنها الهيثم أخباره عن العصر الراشدي والأموي والعباسي؛ إذ أخذ عنه أخباراً عن فتح خراسان[١٤] وزواج أبي سفيان من صعبة الفارسية[١٥] وأخذ منه وصية معاوية لابنه يزيد في الحسين وابن الزبير[١٦] وأخبار يزيد[١٧] وزياد بن أبيه[١٨] وابنه عبيد الله[١٩] وأخبار عبد الله بن الزبير[٢٠] ومقتل مصعب وخالد القسري[٢١]. وكما وأخذ الهيثم عن أبي بكر عبد الله بن عياش الأخبار التي تتعلق بفترة عبد الملك بن مروان[٢٢] وأبي جعفر المنصور[٢٣].

---

(١) الخطيب: تاريخ بغداد١٤/٥٢.

(٢) الخطيب: م س١٤/٥٢.

(٣) الخطيب: م س ١٤/٥٣: ابن خلكان: وفيات الأعيان ٧/٢٦١؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، بيروت، المكتب التجاري ٢/١٩.

(٤) البغدادي، محمد بن حبيب ت٢٤٥هـ: المحبر، تحقيق اليزه شيتر، بيروت المكتب التجاري ص٢؛ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ليدن ١/١٠٧٢.

(٥) القفطي: انباه الرواة ٣/٣٦٧-٨؛ ابن خلكان: م س ٦/١١١.

(٦) ابن خلكان: م س ٣/٣٤٤.

(٧) ابن النديم: الفهرست ١٠٣.

(٨) الذهبي: ميزان الاعتدال في نقد الرجال ٣/٤٣٨؛ ياقوت معجم الأدباء ٦/٢٤٢.

(٩) الطبري: التاريخ ١/١١٦٥.

(١٠) البلاذري: أنساب الأشراف ١/٤٨٧.

(١١) البلاذري: فتوح البلدان، تحقيق رضوان محمد رضوان، مصر، مط. السعادة ١٩٥٩ص ٤٤٣-٤.

(١٢) البلاذري: أنساب الأشرف ٥/١٧٢، ٢٨٢، ٣٣٤.

(١٣) أبو بكر عبد الله بن عياش الهمداني المنتوف، من رواة الحديث في الكوفة، كان يعقد حلقات مجلسه في الكوفة، وكان عثماني الهوى ولد سنة ٩٥-٩٧ في زمان سليمان بن عبد الملك، قربه الخليفة المنصور وتوفي سنة ١٩٣. انظر: الخطيب: تاريخ بغداد ١٤/٣٧٦-٣٨٥.

(١٤) البلاذري: فتوح ٤١١.

(١٥) ابن قتيبه: عيون الأخبار ٤/١٠١.

(١٦) الجاحظ: البيان والتبين ٢/١٣١.

(١٧) البلاذري: أنساب الأشراف م ٤ ق ١/٢.

(١٨) بلاذري: م س ٤/١٥٤؛ طبري: تاريخ ٢/٤٥٩.

(١٩) ابن قتيبة: عيون الأخبار ٢/٩٧.

(٢٠) بلاذري: أنساب الأشراف ٤/٢٨، ٤٩-٥٠.

(٢١) طبري: تاريخ ٢/٨٠٨، ١٦٥٧-٨؛ بلاذري: أنساب الأشراف ٥/٣٤٦.

(٢٢) بلاذري: أنساب الأشراف ٤/١٣١-١٣٤؛ ١٤١-١٤٣.

(٢٣) طبري: تاريخ ٣/٨٩، ٢٧٣، ٤١١-١٢، ٤٢٩.

وتتركز معلومات الهيثم عن الفترة الأموية على عوانه بن الحكم ت ١٤٧هـ/ ٨٦٤[١] الذي وضع (كتاب التاريخ) و(سيرة معاوية وبني أمية)[٢] والأول منهما يتعلق بأخبار الخلفاء الراشدين والرده والفتوح.

والثاني يتعلق بأخبار خلفاء بني أمية حتى نهاية فترة عبد الملك. ويدلنا على ذلك المقتبسات التي أخذها عنه المؤرخون المتأخرون ويمكن الاعتماد على أخبار الهيثم التي أخذها من عوانة مباشرة أو من كتبه عن الفترة الأموية لاهتمام عوانة في تصويره للعصر الأموي[٣].

وكان من مصادر الهيثم أيضاً هشام بن محمد بن السائب الكلبي ت٢٠٦هـ إذ اعتمد عليه في رواياته عن عرب الجاهلية وأيامها وأحلافها، كما وأخذ عنه أخباراً عن عصر النبوة والفتوح الإسلامية[٤].

وحينما نصل إلى الفترة العباسية نجد أن مصادر الهيثم تتشعب بين أشياخه كأبيه وعبد الله بن عياش المنتوف[٥] وأشخاص مجهولين يكتفي الهيثم في سنده عنهم بقوله خبرت[٦]. وبين رجال الإدارة والسياسة[٧] في الدولة العباسية، إضافة إلى خبرة الهيثم الشخصية مع الخلفاء؛ إذ اختص بمجالسة المنصور والمهدي والهادي والرشيد وروى عنهم[٨]. وكانت معظم رواياته تتعلق بمرحلة الصراع السياسي للدعوة العباسية وفترة الخليفة المنصور واختياره بغداد مركزاً للدولة الجديدة وعلاقته بالعناصر المناوئة من أتباع بني أمية وبني هاشم ومن البيت العباسي نفسه[٩].

(١) عوانه بن الحكم ت ١٤٧هـ: كان عوانه كوفياً عالماً بالأخبار والآثار والشعر والأنساب، عثماني الهوى وضع أخباراً لبني أمية. كتب (كتاب التاريخ) و(سيرة معاوية وبني أميه)، واستعمل عوانه الإسناد بصورة مفككه ويتضح أثر أسلوب أيام العرب القصصي في تخلل الشعر لرواياته.

(٢) ابن النديم: الفهرست ١٠٣؛ روزنتال: علم التاريخ: ١٢٨.

(٣) الدوري: بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب، بيروت، المطبعة الكاثوليكية ١٩٦٥ص٣٦.

(٤) الجاحظ: البيان والتبيين ٢٦٣/٢؛ بلاذري: فتوح: ٨٠.

(٥) طبري: تاريخ ٨٩/٣، ٢٧٣، ٤١١، ٤٢٩، ٤٣٠.

(٦) طبري: تاريخ ٢٧٣/٣-٤.

(٧) طبري: تاريخ ٤٢٠/٣، ٤٥٦.

(٨) القفطي: انباه الرواة ٣٦٥/٣.

(٩) أبو حنيفة الدينوري: الأخبار الطوال ٣٦٠-٣٧٥ روى عن الهيثم علاقة أبي جعفر المنصور بابن هبيرة وغدر المنصور به؛ طبري: تاريخ ٨٩/٣، ٢٧٣، ٤١١، ٤٢٨-٤٣٠، ٤٣٨، ٤٥٦-٧. أورد الطبري روايات عن الهيثم تتعلق بعلاقة المنصور بالعلويين ورجال البيت العباسي.

رأي معاصري الهيثم في مصادره ورواياته:

إن بعض المصادر المعاصرة للهيثم أو القريبة من عصره تثير الشبهات حول أمانته وضبطه للأخبار التي يرويها. ويقف الجاحظ على رأس المصادر المشككة بأمانة الهيثم، فقد اسقط الجاحظ روايات الهيثم عن الدعوة العباسية ودولتها بقوله «نقل أبو عبيدة النحوي وأبو الحسن المدائني وهشام ابن الكلبي والهيثم بن عدي أخباراً قد اختلفت وأحاديث قد تقطعت فلم يدركوا إلاّ قليلاً من كثير وممزوجاً من خالص»[١٠] فالجاحظ يعتقد أن المصدر المأمون عدالته، والمؤكد ضبطه، عن الدعوة العباسية وأخبارها، وعلاقة العباسيين ببني أمية، في مرحلة كتمان الدعوة، هو رجال الدعوة العباسية أنفسهم. قال الجاحظ «وعلى كل حال فإنا إذا صرنا إلى بقية ما رواه العباس بن محمد، وعبد الملك بن صالح، والعباس بن موسى، وإسحاق بن عيسى، وإسحاق بن سليمان، وأيوب بن جعفر، ومارواه إبراهيم بن السندي عن السندي وعن صالح المصلي عن مشيخة بني هاشم ومواليهم عرفت بتلك البقية كثرة ما فات وبذلك الصحيح أين موضع الفساد مما صنعه الهيثم بن عدي وتكلفه هشام بن الكلبي»[١١].

وقال أيضاً «كان إبراهيم بن السندي يحدثني عن هؤلاء بشيء هو خلاف ما في كتب الهيثم بن عدي وابن الكلبي، وإذا سمعته علمت أنه ليس من المؤلف المزور»[١٢] وقول الجاحظ الأخير يتطلب دراسة روايات الهيثم بن عدي بن الدعوة العباسية ودولتها ومقارنتها بما يقابلها من الروايات التي رواها الرواة الذين أرسل الجاحظ إسنادهم عن مشايخ بني هاشم وبعد هذا يمكن الحكم على مدى صحة رأي الجاحظ في روايات الهيثم ابن عدي.

والجاحظ يحمل على الهيثم في معظم رواياته فقد قال الجاحظ «قال لي أبو يعقوب الخزيمي: ما رأيت كثلاثة رجال يأكلون الناس أكلاً حتى إذا رأوا ثلاثة رجال ذابوا كما يذوب الرصاص في النار، كان هشام بن محمد علامة نسابة ورواية للمثالب عيابه، فإذا رأى الهيثم بن عدي ذاب كما يذوب الرصاص في النار»[١٣]. وقال أيضاً «وقد هجيت الحارث بن

(١٠) الجاحظ: البيان والتبيين ٣٦٦/٣.

(١١) الجاحظ: م س ٣٦٨/٣.

(١٢) الجاحظ: البيان والتبيين ٣٣٥/١ إبراهيم بن السندي بن شاهك روى الجاحظ عنه كثيراً وأبوه السندي كان يلي السجن ببغداد للرشيد انظر: الجهشياري: الوزراء والكتاب ٢٣٦.

(١٣) الجاحظ: م س ١٣١/١-٢.

كعب وكتب الهيثم فيهم كتاباً فما ضعضع ذلك منهم، حتى كأنه قد كتبه لهم»[١].

وذكر الجاحظ في معرض حديثه عن الخوارج «وممن كان يرى رأى الخوارج: الهيثم بن عدى»[٢] بل إنه اتهم الهيثم بالشعوبية خلال نقده لخبر رواه فقال: «وأنا اتهم هذا الحديث لأن فيه مالا يجوز أن يتكلم به عربي يعرف مذاهب العرب، وهو من أحاديث الهيثم»[٣].

وعلى هذا فإنه بالرغم من قرب الجاحظ من عصر الهيثم فإنه يجب أخذ رأيه في الهيثم بن عدى بحذر.

إن الهيثم ألف كتبا تعرض بها لأحوال الناس وأخبارهم فيرويها على وجهها وتشبع ما كتموه وكانت مستورة فكره لذلك[٤]. فقد وضع كتاباً في هجاء الحارث بن كعب[٥]. قبيلة زوجته، فما كان من بني الحارث إلا أن وفدوا على الرشيد وذكروا له أن الهيثم ذكر العباس بن عبد المطلب بشيء وسألوا الرشيد أن يفرق بين الهيثم وبين التي تزوجها منهم، فأمر الرشيد داود بن يزيد أن يفرق بينهما، فاخذوا الهيثم وضربوه بالعصي حتى طلقها ولبث في السجن بسبب هذه الوشاية بضع سنين[٦] ولما بويع الأمين بالخلافة سنة١٩٣ اخرج من الحبس من كان أبوه حبسه. وكان ممن أخرجهم الهيثم بن عدي[٧].

وقد اعتقد بعض المؤرخين بصحة خبر طعن الهيثم بالعباس بن عبد المطلب لكننا على ضوء النصوص والشواهد الواردة لا يمكننا الأخذ بهذا الرأي مأخذ القبول وذلك لعدة أسباب:

١- إن العباس بن عبد المطلب في سيرته الفعلية والقولية والتقريرية، كان مثالاً لسلوك الفرد المسلم، فعلى الرغم من تأخر إسلامه فقد كان عضداً للرسول ﷺ ودعوته؛ فبيعة العقبه وما تمخض عنها من تحريك العقيدة الإسلامية إلى مواقع متقدمة من ميدان التبشير والعمل السياسي في المدينة، قد لعب العباس فيها دوراً لا ينكر، إن هذه الشخصية التي تربى في أحضانها حبر الأمة الإسلامية عبد الله بن عباس، تجعل الإنسان المسلم ينظر إليه بعين الفخر والاعتزاز لا بعين السخط والاحتراز.

٢- إن الوضع السياسي القائم في عصر الهيثم، كان يعمل على بعث أمجاد البيت العباسي وفضله على الإسلام، وتثبيت حق الخلافة له دون غيره من البيوت القرشية وخاصة البيت العلوي، إن الطعن بالعباس بن عبد المطلب يعني في عرف العباسيين نفي شرعية خلافتهم ومحاولة لتقويض حكمهم.

٣- إن خبر العباس بن عبد المطلب يقع ضمن الخبر الديني. لذا فإن رجال الحديث والأخبار يتشددون في تحقيق سند الخبر، والهيثم نفسه من أهل الحديث عليه أن يتشدد في إرسال سنده المتعلق بفترة عصر النبوة.

والمصادر التأريخية لا تذكر لنا خبر الطعن بسند مرسل، إنما ذكر بعضها ما ترتب على التهمة من تفريق بين الهيثم وزوجه ولبثه في السجن بضع سنين.

٤- كان الهيثم ملازما للهادي والمهدي والرشيد بل أنه كان من ندماء المهدي، وهذه الملازمة لخلفاء بني العباس تفرض عليه أن لا يجازف في إبداء أي نقد أو انتقاد لزعيم هذا البيت.

٥- إن الهيثم في معتقده لم يكن مخالفاً للعباسيين بل أن الجاحظ نفسه روى خبراً للهيثم يمدح فيه العباس بن عبد المطلب قال الجاحظ «الهيثم أخبرنا الكلبي: قال كانت قريش تعد أهل الجزالة في الرأي العباس بن عبد المطلب وأبا سفيان ونبيها وأمية بن خلف[٨](*).

وعلى هذا نستبعد طعن الهيثم بالعباس بن عبد المطلب وإنما كان الطعن ملفقاً من بني الحارث[٩].

عقيدته ومذهبه السياسي:

برزت في عصر الهيثم مدارس إسلامية متعددة ومتباينة في فهمها للعقيدة الإسلامية وأحكامها وأسلوب ممارستها، وكان الاختلاف حول شخص الحاكم وأسلوب تطبيق الشريعة الإسلامية من النقاط الرئيسية التي تميز تلك المدارس بعضها من بعض.

كان الهيثم ابن البيئة العباسية حرياً بأن يتأثر بهذا الصراع وأن يكون له موقف فكري معين وممارسة عملية لمفاهيم عقيدته. فقد كان الهيثم مسلماً.

وقد ذهب المؤرخون في مذهبه السياسي مذاهب؛ إذ زعم الجاحظ أن الهيثم كان يرى رأي الخوارج[١٠] ويتفق ابن قتيبة مع الجاحظ في هذا الزعم[١١] وعلى الأرجح أن المتأخرين من

(١) الجاحظ: م س ٣٩/٤.

(٢) الجاحظ: م س ٣٤٧/١؛ القفطي: انباه الرواة ٣٦٥/٣.

(٣) الجاحظ: البخلاء بيروت دار صادر ١٩٦٣ ٣١٠.

(٤) ياقوت: معجم الأدباء ٢٦٤/٧.

(٥) الجاحظ: البيان والتبيين ٣٩/٤.

(٦) الاصفهاني: الأغاني ١٠٩/٨؛ ياقوت: معجم الأدباء ٢٦٢/٧.

(٧) ابن قتيبة: المعارف ٣٨٤.

(٨) الجاحظ: البيان والتبيين ٢٦٣/٤.

(٩) القفطي: أنباه الرواة ٣٦٥/١.

(*) خلط اسم النبي ﷺ بهؤلاء في جزالة الرأي، دليل وضع هذا الخبر من قبل الهيثم أو الكلبي تزلفاً لبني العباس أو بني أمية. «التحرير»

(١٠) الجاحظ: البيان والتبيين ٣٤٧/١.

(١١) ابن قتيبة: المعارف ٥٣٨.

أمثال القفطي[١] وابن خلكان[٢] قد أخذا هذه الرواية من كتب الجاحظ والأخير، على الرغم من معاصرته للهيثم، فإننا كما قلنا نأخذ أخباره عن الهيثم بحذر، ذلك إنه كان يحمل على الهيثم كثيراً ولا يجد منقصة اجتماعية أو سياسية إلا ووصمه بها ولصقها به: فعلى الصعيد الاجتماعي طعن في نسبه العربي وجعله من الشعوبية[٣].

وعلى الصعيد العلمي اعتبر الجاحظ الهيثم قد تتبع أخباراً قد اختلقت وأحاديث قد تقطعت فلم يدرك إلا قليلا من كثير وممزوجا من خالص[٤] وبأن أخبار الهيثم لا يمكن أن تبلغ مرتبة أخبار إبراهيم بن السندي في صحتها[٥] كما أن أعماله العلمية لم تدرك غايتها، إذ وضع الهيثم كتاباً في هجاء الحارث بن كعب فلم يؤثر فيهم حتى كأنه قد كتبه لهم[٦].

وفوق هذا كله زعم الجاحظ أن الهيثم كان يرى رأى الخوارج وهي تهمة كافية للقضاء على وجوده الاجتماعي والعلمي.

لقد اسقط الجاحظ الهيثم بن عدي اجتماعياً وسياسياً بوصمه بتهمة الخروج عن سنة الدولة القائمة. وعزز انتشار هذه التهمة عند المؤرخين المتأخرين ما عرف عن الهيثم عند رجال الحديث من ضعف رواية الحديث[٧] ولحن في قراءة القرآن[٨]. وفي الحقيقة أن هذه التهمة لا وجود لها إلا في ذهن الجاحظ وإلا فإنه لو كان الهيثم خارجي المذهب لظهر اثره في رواياته عن الحركات الاجتماعية والسياسية التي برزت في العصرين الأموي والعباسي.

وفاته:

يبدو أن الهيثم بعد أن لبث في السجن بضع سنين وبعد أن عرف بالوضع بين معاصريه من رواة الحديث والأخبار في مجالس بغداد والكوفة، آثر أن يقضي البقية الباقية من حياته في واسط بلدة والده، الذي كان من جهاء واسط في عهد ابن هبيره[٩] وقد استقر الهيثم بعد سنة ١٩٣ في محلة من محال واسط يقال لها فم الصلح حتى وفاته سنة ٢٠٧هـ عن عمر يناهز الثلاث وتسعين سنة[١٠] وقيل إن وفاته كانت سنة ٢٠٦[١١] وفي رواية أخرى أنه توفي سنة٢٠٩ حين بنى المأمون ببوران عند الحسن بن سهل[١٢].

مؤلفاته:

ذكر ابن النديم خمساً وخمسين كتاباً للهيثم بن عدي تنوعت مباحثها وتوزعت عناوينها بين عرض للصراع القبلي واستمراره في الدولة الإسلامية وبين تاريخ للدولة العربية الإسلامية في جوانبها الحضارية والمدنية وعلاقاتها السياسية والاجتماعية مع الدول والشعوب المجاورة لها.

ولا يوجد لدينا ما يؤكد أو ينفي أن الهيثم قد كتب هذه المؤلفات أم أن بعضها كان في ذهنه كمشروع لتاريخ موسع، سوى ما ذكره ابن النديم بأن هذه الكتب قد صنفت فعلاً[١٣]. وندرج هنا مؤلفات ابن الهيثم التي ذكرها ابن النديم وابن خلكان[١٤] وحاجي خليفة[١٥] وإسماعيل باشا البغدادي[١٦].

١- هبوط آدم وافتراق العرب ونزولها منازلها.
٢- بيوتات العرب.
٣- بيوتات قريش.
٤- أسماء بغايا قريش ومن ولدن.
٥- نسب طيء.
٦- أخبار طي ونزولها في الجبلين وحلف ذهل وثقل.
٧- حلف كلب وتميم وحلف ذهل وحلف طي واسد.
٨- كتاب أخبار الفرس.
٩- كتاب من تزوج من الموالي في العرب.
١٠- كتاب تاريخ العجم وبني أمية.
١١- كتاب النساء.

---

(١) القفطي: انباه الرواة ٣٦٥/٣.
(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان ١٠٦/٦.
(٣) الجاحظ: البخلاء ٣١٠.
(٤) الجاحظ: البيان والتبيين ٣٦٦/٣.
(٥) الجاحظ: م س ٣٥٥/١.
(٦) الجاحظ: ن م ٣٩/٤.
(٧) الخطيب: تاريخ بغداد ٥٢/١٤.
(٨) ابن قتيبة: المعارف ٥٣٣ كان الهيثم يدخل في القرآن من ألحان الغناء والعداء والرهبانية كقراءته: «أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر، كهيئة

أمـــا القطـــاة فـــإني ســـوف انعتهـــا
نعتـــاً يوافـــق نعتـــي بعـــض مـــا فيهـــا

(٩) الدينوري: الأخبار الطوال تحقيق عبد المنعم عامر القاهرة١٩٦٠ ٣٧٠-٣٧٢.
(١٠) ابن النديم: الفهرست ١١٢؛ الخطيب: تاريخ بغداد ٥٤/١٤؛ ابن العماد: شذرات الذهب ١٩/٢.
(١١) القفطي: انباه الرواة ٣٦٩/٣.
(١٢) ابن قتيبة: المعارف ٥٣٩؛ السمعاني: الأنساب ١٠٣/٢.
(١٣) ابن النديم: الفهرست ١١٢-١١٣.
(١٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٢٦٥/٧-٦.
(١٥) حاجي خليفة: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، طهران ١٩٤٧ ذكر حاجي خليفة إن كتاب الهيثم الموسوم (طبقات الفقهاء والمحدثين) كان في أربع مجلدات، ولا أدري هل أن حاجي خليفة قد شاهد نسخة لهذا الكتاب أم أنه نقل خبره من مؤلفات المتقدمين التي اختفت من الوجود.
(١٦) إسماعيل باشا البغدادي: هدية العارفين طهران ١٩٤٧ ٥١١/٢.

١٢- كتاب المثالب.
١٣- كتاب المثالب الصغير.
١٤- كتاب المثالب الكبير.
١٥- كتاب مثالب ربيعة.
١٦- كتاب النكد.
١٧- كتاب المعمرين.
١٨- كتاب مداعي أهل الشام.
١٩- مديح أهل الشام.
٢٠- التاريخ على السنين.
٢١- نزول العرب بالسواد وخراسان.
٢٢- أمراء خراسان واليمن.
٢٣- خطط الكوفة.
٢٤- ولاة الكوفة.
٢٥- فخر أهل الكوفة على أهل البصرة.
٢٦- قضاة الكوفة والبصرة.
٢٧- عمال الشرط لأمراء العراق.
٢٨- أخبار الحسن بن علي.
٢٩- طبقات الفقهاء والمحدثين.
٣٠- تسمية الفقهاء والمحدثين.
٣١- سجل الجواهر.
٣٢- أخبار زياد بن أبيه.
٣٣- مقتل خالد بن عبد الله القسري والوليد بن يزيد ويزيد بن خلف بن عبد الله.
٣٤- تاريخ الأشراف الكبير.
٣٥- تاريخ الأشراف الصغير.
٣٦- تاريخ الخلفاء.
٣٧- الخراج.
٣٨- الصوايف.
٣٩- حرس الخلفاء.
٤٠- خواتيم الخلفاء.
٤١- شرط الخلفاء.
٤٢- كنى الأشراف.
٤٣- أشراف الكتاب.
٤٤- كتاب الوفود.
٤٥- كتاب المواسم.
٤٦- النوادر.
٤٧- النواقل.
٤٨- الشباب.
٤٩- السمير.
٥٠- المحبر.
٥١- الجامع.
٥٢- مقطعات الأعراب.
٥٣- خطب المصرين مكة والمدينة.
٥٤- من روى عن النبي من أصحابه.

منهجه في كتابه التاريخ:

كان اهتمام المؤرخ المسلم منصباً على المفاهيم الجديدة التي أتى بها الدين الإسلامي وما ترتب على تشخيص تلك المفاهيم، من تفاعل حضاري ومدني بين الإنسان العربي وبيئته الجديدة. وقد بدأت المحاولات الأولى لتدوين ذلك التفاعل الحضاري والمدني عند عروة بن الزبير وابان بن عثمان ثم تبعهما أو مخنف لوط بن يحيى ونصر بن مزاحم وعوانه بن الحكم والمدائني.

وفي بداية القرن الثالث الهجري وصلت الدراسات التاريخية إلى مرحلة أدت إلى ظهور مؤرخين عظام في ذلك القرن من أمثال أبي روق عطيه بن الحارث الهمداني وابن أبي عيينه المهلبي وخلف بن حيان الأحمر الأشعري ومحمد بن إسحاق، ومحمد بن السائب الكلبي وابنه هشام ومحمد الواقدي والهيثم بن عدي[١]. إن كتابات هؤلاء اشادت عرضاً للدراسات التأريخية وأعطت تقدماً في هذا الحقل. ونحاول هنا أن نلتمس الخطوط العريضة للدراسة التاريخية عند الهيثم بن عدي:

١- جاء الإسلام فربط التاريخ العربي بالتاريخ الإنساني مؤكدا بهذا على فكرة توالي الرسالات الإلهية من آدم، وإلى محمدﷺ التي بشرت بوحدانية الله وعبادته فعبر الإسلام بذلك على عالميه التاريخ العربي الإسلامي. وقد أوضح الهيثم هذه النظرة[٢] في كتابه الموسوم «هبوط آدم واقتران العرب ونزولها منازلها» وكذلك بروايته لأخبار الأمم التي سبقت ظهور الإسلام[٣].

٢- وعلى الرغم من عالمية الدين الإسلامي «وما أرسلناك إلا للناس كافة»، وإنه لافضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى، أي طاعة الله وتنفيذ رسالته في الحياة الدنيا، فإن الإسلام وضع قريش في منزلة غير سائر المسلمين «إلا أن الأئمة من قريش» وهذا يعني حصر الإمامة وجعلها في العرب- قريش-آل البيت، وهذا يتضح في الصبغة الشرعية التي أضفاها الفقهاء على حكم الأمويين في دمشق والعباسيين في بغداد والفاطميين في القاهرة، دون السلاطين العثمانيين الذين لم يجرأوا على استعمال لقب خليفة إلا بعد أن بدأت

(١) الجاحظ: البيان والتبيين ٣٦٠/١.
(٢) محمد بن حبيب البغدادي: المحبر ص٢؛ الطبري: تاريخ ١٠٧٢/١.
(٣) القفطي: انباه الرواة ٣٦٧/٣-٨ ابن خلكان: وفيات الأعيان ٣٤٤/٣، ١١١/٦؛ ياقوت معجم البلدان ٣٨٢/١.

عوامل الضعف تدب في دولتهم[١]. علماً بأن الخلافة في دمشق وبغداد والقاهرة قد أقيمت بالقهر وهي دون مرتبة الإمامة التي أقرها القرآن الكريم أسلوباً في ممارسة الحكم بعد وفاة الرسول ﷺ.

وقد وضع الهيثم كتباً أوضح فيها مكانة قريش بين العرب مثل كتاب «بيوتات العرب» و«بيوتات قريش» وكتاب «تاريخ الأشراف الكبير» و«تاريخ الأشراف الصغير» و«تاريخ الخلفاء» وكتبه الثلاثة الأخيرة تعبر عن «نظرة الارستقراطية العربية إلى مكانتها في المجتمع الإسلامي وتعبر عن الوحدة الثقافية في تاريخ العرب»[٢].

٣- وفي عصر الخلفاء الراشدين توسعت الفتوحات الإسلامية فأمر عمر ﷺ بتدوين الدواوين وسجل العرب على منازلهم حسب قرابتهم من الرسول[٣]، وجهادهم في سبيل الله وإعلاء كلمته، إن فرض عمر ﷺ للأعطيات جعل المسلمين يهتمون بدراسة الأنساب إضافة إلى اهتمامهم بها في الجاهلية. وقد كانت كتب الهيثم (بيوتات قريش) و(نسب طى) و(بيوتات العرب) وكتاب من تزوج من الموالي في العرب تجسيداً لهذا الاهتمام. وقد وضع الهيثم كتاب تاريخ الأشراف الكبير وكتاب تاريخ الأشراف الصغير وقد ضمنهما معلومات تاريخية عن الدولة الإسلامية في جوانبها السياسية؛ وهما أول محاولة لتطوير خط دراسة الأنساب إلى دراسة التاريخ العربي الإسلامي[٤]، فعلى الرغم من أن عنوانيهما يوحيان بانتمائهما إلى كتب الأنساب إلا أنهما، دراسة تاريخية في إطار الأنساب توضح دور الارستقراطية العربية السياسية في صنع التاريخ الإسلامي وإلى مكانتها في المجتمع الإسلامي.

وقد كانت مؤلفات الهيثم مصدراً مهماً جداً للبلاذري في كتابه أنساب الأشراف، أكثر من أهمية الكلبي له في مؤلفه[٥]؛ إذ أخذ البلاذري عن الهيثم أجفاره عن عصر النبوه في الجزء الأول من كتابه[٦] وما عن الفترة الأموية وما رافقها من أحداث سياسية فقد اتخذ البلاذري كتب الهيثم كنموذج لمؤلفاته وخاصة الجزئين الرابع والخامس من كتابه أنساب الأشراف[٧]، وبنفس الوقت فقد كان الهيثم مصدراً مهما للدينوري في كتابه الأخبار الطوال[٨].

٤- لقد شهد العصر الراشدي صراعاً حاداً بين العقيدة الإسلامية، التي سعى إفرادها على تموضعها في الواقع وبين الفئات الارستقراطية القبلية، التي كان تموضع العقيدة الإسلامية، يشكل تعارضاً مع مصالحها الاقتصادية ومكانتها الاجتماعية التي كونتها من الوضع القائم آنذاك. ولقد فشلت الارستقراطية المكية في مواجهة التيار الإسلامي وسقطت اجتماعياً بفتح مكة. وأخذت تبحث في الوضع الجديد عن مراكز القوة السياسية والاقتصادية، وانتصرت الارستقراطية المكية-القبلية في صلحها مع الحسن ابن علي وإقامتها للدولة الأموية، أثار الأمويون العصبية القبلية بين العرب أنفسهم من جهة وبين العرب والموالي من جهة أخرى، وذلك لتعزيز مركزهم.

وقد وضع الهيثم كتباً توضح هذا الصراع وجذوره الجاهلية، الذي استفحل أثره في الدولة الإسلامية، وكانت تلك الكتب تبحث في أنساب القبائل وأحلافها وصحة عروبتها ومثالب أعدائها. إذ كتب الهيثم في الأنساب: نسب طى، أخبار طي ونزولها في الجبلين وحلف ذهل وثقل، وكتاب حلف كلب وتميم وحلف ذهل وحلف طي وأسد، ليوضح مركز قبيلته طي بين القبائل العربية. وكتب في المثالب: كتاب المثالب؛ وكتاب المثالب الكبير وكتاب المثالب الصغير وكتاب مثالب ربيعه وكتاب مداعي أهل الشام وكتاب مديح أهل الشام والراجح أن الكتابين الأخيرين كتاب واحد وإن كلمة مديح هي تصحيف لكلمة مداعي. وكتاب فخر أهل الكوفة على أهل البصرة.

إن هذه الكتب توضح استمرار الاتجاه القبلي في كتابة التاريخ فالصراع بين اليمانيه والعدنانيه كان على أشده بين البصرة والكوفة.

٥- ويمكن أن نعد الهيثم بن عدي رائداً من رواد المدرسة العراقية في كتابة التاريخ. فقد وضع معظم رسائله وكتبه في تاريخ العراق وهي تؤكد النزعة الاقليمية العراقية عند الهيثم. وكانت معظم كتبه التي تناولت التاريخ المحلي تؤكد على الجوانب الحضارية للتاريخ الإسلامي. فالهيثم قد صنف كتبا عدة أوضحت التفاعل الحضاري بين الأحكام الإسلامية والواقع الإنساني، وبصورة أدق أن مؤلفاته تبحث عن تموضع العقيدة الإسلامية في المجتمع العربي الإسلامي وأدوات ذلك التموضع.

فكانت كتبه (ولاة الكوفة) و(قضاة الكوفة والبصرة) و(عمال

(١) فيليب حتى: تاريخ العرب، بيروت ١٩٦٥جـ٢/٨٣١.
(٢) الدوري: بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب ص١٣٤.
(٣) البلادري: فتوح٤٤٣.
(٤) الدوري: م س ص ٥٢.
(٥) البلاذري: أنساب الأشراف، القدس، الجامعة العبرية ١٩٣٦. ٤/٥.
(٦) البلاذري: أنساب الأشراف ١٧٥/١-٥١١.
(٧) البلاذري: أنساب الأشراف ١/٤-٥٠٦؛ ١٣٦/٥-٣٥٢.
(٨) الدنيوري: م س.

الشرط لأمراء العراق) و(أمراء خراسان واليمن) و(شرط الخلفاء) و(تاريخ الخلفاء) كانت هذه المصنفات تعبر عن الهيئات التنفيذية للشريعة الإسلامية في المجتمع الإسلامي، حاول الهيثم أن يوضح مدى اتساق هذه الهيئات مع الحكم الشرعي.

وقد ضمن وكيع كتابه (أخبار القضاة) جزءً كبيراً من كتاب (قضاة الكوفة والبصرة) للهيثم بن عدي. وقد حاول الهيثم أن يضع تاريخاً للقضاء في الإسلام في إطار أشخاص القضاة[١] وأخبارهم[٢] وشروط اختيارهم[٣] وأسباب عزلهم[٤] وطرق تنفيذهم للحكم الإسلامي. وقد أوضح الهيثم أثر التحولات السياسية على القضاة في الدولة الإسلامية[٥].

وأرخ الهيثم لأحداث العراق السياسية في الفترة الأموية في إطار دراسته لـ (أخبار الحسن بن علي) و(أخبار زياد بن أبيه) و(مقتل خالد بن عبد الله القسري والوليد بن يزيد ويزيد بن خلف بن عبد الله)

ودور زياد وخالد القسري في قمع الحركات العراقية المعارضة للسلطة الأموية وقتئذاك.

٦- التاريخ من صنع أفراد: حاول الهيثم أن يؤرخ للارستقراطية العربية ومكانتها في المجتمع الإسلامي، ومراكز القوة السياسية والاقتصادية التي تمتلكها، والأدوات التنفيذية التي تمتثل بأمرها، وعلاقة الارستقراطية العربية بالارستقراطية الأجنبية؛ فكتاباه تاريخ الأشراف الكبير وتاريخ الأشراف الصغير هما دراسة تاريخية، في إطار دراسات الأنساب، لمكانة الارستقراطية العربية في المجتمع الإسلامي. أما كتابه (تاريخ الخلفاء) فجاء معبراً عن القوة السياسية التي بيد الارستقراطية العربية التي تهيمن على الملكيات الزراعية في الدولة الإسلامية وجاء كتابه (الخراج) معبراً عن هذه الملكية.

أما الأدوات التنفيذية التي تحقق بها مصالحها، فقد أبان عنها الهيثم في كتبه (حرس الخلفاء) و(شرط الخلفاء) و(وأشراف الكتاب) و(الصوائف) و(ولاة الكوفة) و(عمال الشرط لأمراء العراق) و(خواتيم الخلفاء) والكتاب الأخير من المواضع الطريفة في بابها وهو عبارة عن دراسة لأختام حكام الدولة الإسلامية ابتداء من الرسول ﷺ وحتى زمن المؤلف[٦].

كما حاول الهيثم معرفة الصلات التي تربط الارستقراطية العربية (الخلفاء الأمويون-الأشراف) بالارستقراطية الأجنبية (الدهاقين في فارس) في ظل الدولة الإسلامية. فكان كتابه (من تزوج من الموالي في العرب) محاولة لكشف علاقات المصاهرة التي تربط الارستقراطيتين العربية والفارسية ببعضهما وجاء كتابه (تاريخ العجم وبني أمية) و(أخبار الفرس) ليضع الارستقراطيتين العربية والفارسية في جهة كقوة غير منتجة تحكم بالقهر، والحركات الاجتماعية من العرب والأعاجم كجهة منتجة مستعبدة تواجه بالعنف عند أبسط مطالبة منها بحقوقها.

٧- حاول الهيثم أن يؤرخ للحياة الثقافية في العراق في جوانبها الأدبية والدينية وكانت كتبه (النوادر، العمرين، سجل الجواهر، المواسم، السمير، المحبر، الجامع) تاريخاً للحياة الأدبية التي شهدها المجتمع الإسلامي من شعر وحكمة ونوادر وخطابة ولغة تمثل في مجموعها ثقافة ذلك العصر.

وكانت رواية الهيثم للحديث تعبر عن اهتمامه بالجانب الديني من المجتمع الإسلامي، فقد أرخ لرجالاته، فوضع كتاب (تسمية الفقهاء والمحدثين) وهو عبارة عن كشاف لرجال الفقه والحديث حتى عصره، ويعد هذا الكتاب مكملاً لكتابه (من روى عن النبي من أصحابه). أما كتاب (طبقات الفقهاء والمحدثين) بمجلداته الأربع فإن الهيثم ترجم في كتابه هذا للحياة الثقافية الدينية في إطار ترجمته لرجال الفقه والحديث. والكتاب في عنوانه ومضمونه يدفعنا إلى التساؤل حول سبب تسميته بالطبقات؟

إن كلمة طبقة لها مدلولان أولهما أفقي ويعني اصطلاحاً وضع دراسة عرضية لفئة من الناس متجانسة في الحرفة أو المعتقد أو الميل والهوى ومتعاصره زمناً. وثانيهما

(١) وكيع، محمد بن خلف بن حيان: أخبار القضاة تحقيق عبد العزيز مصطفى المراغي، ط١ مط الاستقامة القاهرة ١٩٤٧ جـ٢/١٨٤، ٣٩٦.

(٢) وكيع: أخبار ٢/٣٨، ٤٠٨-٤١٣، ٣/٩٩.

(٣) وكيع: م س ١/٧٠.

(٤) وكيع: ن م ٢/١٨٤، ٣٩٦-٣٩٧، ٣/٣، ٢٥.

(٥) وكيع ن م ٢/٣٩٧.

(٦) يذكر روزنتال «لقد كانت نقوش الختوم من الأشياء المنقوشة الصغيرة التي جلبت أنظار المؤرخين المسلمين وقد دخلت التاريخ الإسلامي من المصادر الفارسية فألف الهيثم بن عدي كتاباً عن خواتيم الخلفاء» علم التاريخ عند المسلمين ترجمة صالح أحمد العلي، بغداد ١٩٦٣ص١٨٠ ولا يمكن الأخذ بهذا الرأي لأن الرسول ﷺ وخلفاه كان لكل منهم نقشة خاتمه الخاص. ولما كان الرسول ﷺ في سيرته الفعلية والقولية والتقريرية مصدراً من مصادر التشريع الإسلامي فإن اهتمام الرواة الأخباريين كان منصباً على كل فعل قام به الرسول والأئمة ليكون سلوكاً يحتذى به. لهذا اهتم الأخباريون ضمن ما اهتموا به دراسة خواتيم الخلفاء والفت في ذلك الرسائل ثم سرعان ما أصبحت موضوعاً لأدب طريف ضخم، وعلى هذا يمكن أن نعد الهيثم من الرواد الأوائل لهذا البحث في التاريخ الإسلامي.

طولي ويعني دراسة أتباع تلك الحرفة أو ذلك الميل والمعتقد من نشأتها وحتى زمن دراستها.

ومفهوم دراسة طبقات الأفراد طوليا هو أثر من آثار التفكير الإسلامي في المؤرخين المسلمين. فالإسلام جعل فترة عصر النبوة اللبنة الأولى من صرح البناء الإسلامي والطبقة الأولى من طبقات التاريخ الإسلامي الذي يسير في حركة جوهرية تصاعديه نحو الكمال: فعلى صعيد الأفراد هناك الرسول ﷺ الذي هو محور الجماعة الإسلامية «ولكم في رسول الله أسوة حسنة، والصحابة ثم تأتي الطبقة التابعين من الأئمة وتابعي التابعين وهكذا تتوالى طبقات الأفراد زمنياً حسب قربها أو بعدها عن فترة الرسالة وحسب جهودها في إعلاء كلمة الله، فمن جاهر لايدانيه في منزلته من لم يهاجر قال تعالى ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهاجِرُوا ما لَكُمْ مِنْ وَلايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهاجِرُوا**﴾ من شهد بدراً ليس كمن شهد أحداً ثم أنه ليس من أسلم قبل الفتح كمن أسلم بعد الفتح. وعلى صعيد الدولة الإسلامية نجد فكرة الطبقات تتخذ لها شكلا حلزونيا رأسه دولة الرسول ﷺ في يثرب ومحيط الطبقة الأخيرة من الحلزون حدود الدولة الإسلامية في أوج توسعها.

هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن اهتمام المسلمين بالأنساب وما تتضمن من تركيب شجري ذي امتداد أفقي وطولي جعل مؤرخي المسلمين ينقلون أسلوب دراستهم للأنساب إلى دراستهم لفئات المجتمع الإسلامي:

فالمسلمون في معتقداتهم وحرفهم وأجناسهم وميولهم السياسية ينقسمون إلى طوائف مختلفة ومتعددة، يشبهون القبائل في تعددها واختلافها. فدرست حياة المسلمين الثقافية على ضوء دراسة الأنساب عرضياً وعلى ضوء دراسة الدولة الإسلامية طولياً.

وكان الهيثم من الرواد الأوائل للدراسة في هذا الحقل. وقد عد كتابه (طبقات الفقهاء والمحدثين) نموذجاً حياً لكتب الطبقات التي ترجمت لرجال الفقه والأدب واللغة والنحو والطب. وعلى هذا يمكن أن نعد الهيثم من الأوائل الذين أرسوا دعائم علم الرجال.

٨- أما كتاب (التاريخ على السنين) فقد أوضح فيه الهيثم وحدة التاريخ الإسلامي بابانته تلاحق الأحداث التأريخية ووحدتها، واتبع المنهج الحولي في ترتيب الأحداث التأريخية على الرغم من أن هذا المنهج يقطع الواقعة التأريخية زمنياً ويضعها في ركام من الوقائع التاريخية ويشتتها في مباحث مختلفة. وتكون السنة هي هيكل المنهج الحولي تنتشر أشلاء الواقعة التاريخية في ثناياها، فتفقد بذلك وحدتها، ومع هذا فإن المنهج الحولي يجعل الواقعة التاريخية أكثر دقة بترتيبه لها ترتيباً زمنياً وأكثر منطقية بتقديمه أسباب الواقعه على أحداثها ونتائجها أخذاً بمبدأ العليه.

وقد حذا المؤرخون المسلمون حذو الهيثم في الأخذ بالمنهج الحولي كالطبري ت ٣١٠ وابن مسكويه ت ٤٦١ وابن الأثير ٦٣٠ وبعض مؤرخي مصر الإسلامية.

أما المنهج التأريخي في البحث الذي يتخذ من الحدث التأريخي عنواناً لبحثه، فقد عرفه الهيثم وطبقه في دراسته عن الأحداث التاريخية. وعلى الرغم من أن هذه الأبحاث قد كتبت بشكل منفصل عن بعضها إلا أنها لو جمعت لشكلت كتاباً ضخماً عن الدولة الإسلامية في الأوجه المتعددة لبنائها الاجتماعي. وإن أسماء تلك الكتب (المصنفات) تكون عناوين فصول ذلك الكتاب.

* * *